البارونة فون كريدنر

والمعاهدة المقدسة

كان النصف الأخير من القرن الثامن عشر عصراً عجيباً حافلا بمختلف النزعات والثورات الفكرية والاجتماعية ؛ فهو عصر ڤولتير وروسو ، وهو عصر ازدهار الجمعيات السرية من البناء الحر (الماسونية) وغيرها ، وعصر الدعوات السرية الغامضة ، والدعاة السريين الذين تملأ سيرهم العجيبة صحفاً ممتعة أمثال البارون فون اوفنباخ (يعقوب فرنك) ، والكونت سان جرمان ، وكاليوسترو وغيرهم ؛ وهو أخيراً عصر الثورة الفرنسية التى دكت صروح المجتمع الفرنسى القديم ، وكانت فاتحة عصر جديد فى حياة فرنسا وحياة القارة الأوربية .

فى ظل هذا المجتمع الذى تهبّ عليه ريح الغموض والخفاء ويحدوه شغف التطلع إلى المجهول والخارق ، تجد المزاعم والدعوات السرية والأساطير الدينية تتمتع بنفوذ مدهش ، ولا يقف أثرها عند جمهور الكافة بل يتعداه فى أحيان كثيرة إلى القصور والحكومات ، فيوجه أعمالها ، ويطبعها بطابع خاص .

وتقدّم إلينا صحف هذا العصر أمثلة عدة من هذه الشعوذة الدينية أو للسياسية . وربما كان من أغربها وأعجبها جميعاً مثل البارونة فون كريدنر التى استطاعت بتأثيرها الروحى المدهش أن تسيطر حيناً على عقل ملك من أعظم ملوك عصره ، وأن تنفذ بوساطته إلى معترك الحياة السياسية الدولية العليا ، وأن تؤثر فى توجيهها من وراء ستار .

كانت البارونة فون كريدنر[1] ، واسمها العذرى بربارا يوليانا فتنجهرف ،

---

(١) Von Krüdener .

سيدة من الارستقراطية الألمانية الروسية : ولدت فى مدينة ريجا بمقاطعة ليفونيا فى سنة ١٧٦٤ ؛ وكان أبوها هرمان فون فتنجهوف ضابطاً كبيرا فى جيش الإمبراطورة كاترين الثانية ، ومستشاراً للمقاطعة ، وكان سيداً واسع الثراء . ونشأت يوليانا نشأة أرستقراطية بين مظاهر النعماء والترف مع عدة من الإخوة والأخوات ، وتلقت من ألوان التربية ما كان يتلقاه بنات الأسر الشريفة فى هذا العصر : اللغة الفرنسية وشيئاً من الموسيقى والتطريز وبعض المعلومات العامة . وما كادت تبلغ الثامنة عشرة وتبدو فى ذروة جمالها وسحرها حتى خطبها البارون بوركهارت فون كريدنر ، وهو أرمل فى الرابعة والثلاثين من عمره ، وتم الزواج على الأثر . وكان البارون من رجال السلك السياسى ، كثير الاتزان والتحفظ . وكانت البارونة الفتية من جانبها كثيرة الخفة والمرح ، تعشق السرور والبهجة ، وتشغف بالظهور والحفلات ، ويطربها المديح والغزل ؛ وكان هذا التباين فى الخلال يثير بين الزوجين كثيراً من الخلاف والكدر . ولم يمض عام وبعض عام حتى رزق الزوجان بابن سمى پول . ورقى البارون فى الوقت نفسه إلى مرتبة سفير وأرسل إلى البندقية ، ثم نقل إلى كوپنهاجن سنة ١٧٨٦ وكانت البارونة خلال ذلك عرضة لبعض الآلام النفسية والعصبية التى تزداد على كر الأيام . وفى سنة ١٧٨٧ وضعت ابنة سميت چولييت وعلى أثر ذلك تفاقمت آلامها العصبية ، ونصح لها الأطباء بالسفر إلى الجنوب تنتجع الصحة والعافية ، فنزلت على نصحهم وسافرت مع ابنتها الطفلة وابنة زوجها صوفى .

ووصلت إلى باريس فى ربيع سنة ١٧٨٩ وقت اجتماع نواب الطبقات ، وكانت طلائع الثورة الفرنسية قد أخذت تبدو فى الأفق ؛ ثم سافرت فى العام التالى إلى الجنوب واستقرت بمدينة مونپلييه ، وهنالك تعرفت بضابط شاب يدعى شارل دى فرانجيل ؛ وكانت البارونة يومئذ فى السادسة والعشرين من عمرها ، وافرة الشباب والسحر ، فهام بها الضابط الفتى وهامت به حتى إنها لما عادت إلى كوپنهاجن عاد معها العاشق المفتون . وكان منظراً غريباً حينما تقدمت البارونة إلى زوجها تقص عليه قصة حبها وتنبئه بأن قلبها لم يعد ملكاله ، فاستمع البارون فى حلم وأناة ولم يبد اكتراثا لهذا الحدث الغرامى ، ولكنه لم يرتض الطلاق ، وآثر أن يعقد مع البارونة نوعا من الوفاق الحر ؛ وسهل عقد هذا التراضى رحيل الضابط العاشق ليلحق بفرقته . ولكن البارونة رفضت أن تبقى

إلى جانب زوجها فى كوبنهاجن وعادت إلى التجوال والسفر ، فزارت ريجا وبطرسبرج وبرلين وسويسرة ، ولم تقبل أن تعود إلى زوجها إلا حينما عين فى سنة ١٧٩٨ سفيراً فى برلين ، فصحبته إلى العاصمة البروسية ، ولكنها لم تلبث أن سئمت برود المجتمع البروسى وتحفظه ، وضاعفت حياة البذخ نفقاتها وديونها ، ثم تحرج الموقف بمقتل القيصر بول ، وقد كان البارون يتمتع بعطفه وحمايته ؛ فاضطربت أحوال البارون ، ولم تصبر البارونة على البقاء فى هذا الجو الكدر ، فغادرت زوجها إلى الجنوب لتقضى الشتاء ، وشاء القدر ألا ترى زوجها بعد ذلك لأنها لبثت هذه المرة بعيدة عنه حتى توفى فى صيف سنة ١٨٠٢ دون أن يراها .

٢

فى ذلك الحين كانت البارونة تعيش فى باريس فى جو من المرح وتستقبل فى بهوها الأنيق علية القوم ؛ وكان يحدوها عندئذ شغف بالأدب والكتابة ، ولها صلات وثيقة بأكابر الكتاب والأدباء ، وكان شاتوبريان وغيره من أساتذة العصر فى مقدمة أصدقائها وزوارها . وقد عرضت عليهم قصة وضعتها بعنوان « ڤاليرى » وهى قصة عاطفية تصف فيها طرفا من حياتها وعواطفها فى شخص بطلتها ، فشجعوها على نشرها . وبالرغم من أن البارونة كانت قد بلغت يومئذ السادسة والثلاثين من عمرها ، وأخذ سحرها يذبل ويتضاءل ، فإنها كانت تشغف بالمديح والغزل ، وتلتمس كل سبيل للشهرة ولفت النظر . وقد قال عنها سانت بيف بهذه المناسبة : « إنها كانت تشعر بحاجة كبرى لأن يهتم العالم بها . الكبرياء . . . الكبرياء دائماً . »

وفى سنة ١٨٠٤ عادت البارونة إلى وطنها ليفونيا . وهنا وقع لها حادث عجيب كان سبباً فى تغيير مجرى حياتها إلى وجهة لم تكن تتصورها . ذلك أن سيداً من أصدقائها كان ذات يوم يهم بتحيتها ، فسقط ميتاً عند قدميها ، فارتاعت البارونة ، وتفاقمت اضطراباتها العصبية ، واستحالت إلى نوع من الهيام الدينى ؛ وكان صانع أحذيتها رجلا مشعوذاً من جمعية « إخوان موراڤيا » الدينية ، فلقنها التوجيهات الأولى ، وأضحت منذ ذلك الحين تستمع إلى كل دجال ومشعوذ . وزارت البارونة مدينة كينجزبرج ، وهنالك حظيت برؤية الملكة لويزة

ملكة بروسيا ومحادثتها . وكان ملك بروسيا فريدريك ولهلم الثالث ، وزوجه الملكة لويزة يقيمان في كينجزبرج منذ هزيمة يِنَا ، وسقوط بروسيا صريعة الغزو الفرنسي .

ولقيت البارونة في الوقت نفسه مشعوذا يدعى آدم ميلر يزعم أن السيد المسيح كلفه برسالة لدى الملك فردريك ولهلم ، وأن بعث المسيح قد أضحى على وشك الحدوث . وكانت نظرية البعث chiliasm وخلاصتها أن المسيح سيبعث ويحكم العالم ألف عام ، تهب يومئذ على كثير من المجتمعات الأوربية ، وكان نابليون يعتبر عدوًّا للمسيح منتهكا لتعاليمه ، وكان الاعتقاد سائدا بأن أوان البعث قد اقترب . ويذكي الرهبان هذه الخرافة ويبثونها في القصور بين علية القوم كما يبثونها بين الفلاحين والكافة ، ويزعمون « أنه سيقوم رجل من الشمال ، من مطلع الشمس » وأن عدو المسيح سوف يهزم ، وسوف يقوم المسيح ليحكم الأرض مدى ألف عام .

كان لتلك المقابلة وتلك المزاعم أعمق الأثر في إذكاء خيال البارونة ، فعكفت من ذلك الحين على استقصاء آثار الدعوة والاتصال بالدعاة والمشعوذين في كل مكان ، فهرعت إلى كالسروه حيث كان الراهب المتصوف هينريخ شتلنج يبث دعوته ، وكان أستاذا بارعا في ضروب الخفاء ، وكان له نفوذ كبير في قصور بادن وستوكهلم وبطرسبرج ، فلقنها أصول نظرية البعث وخفايا العالم الآخر . ثم نمى إليها أن راهبا آخر في منطقة « الفوج » يدعى فونتين يأتي بالعجائب والمعجزات ، فقصدت إليه بمقره ببلدة سانت مارى أومين تصحبها ابنتها چولييت وابنة زوجها صوفى وخادم روسي ، وأقامت هناك عامين . وكان فونتين مشعوذا ودجالا بارعا ، وكانت تعاونه في بث تعاليمه مشعوذة بارعة تدعى مارى كومر كانت تخلب لب البارونة بأحلامها وجلساتها الروحية . وكانت البارونة تعيش في هذا الجو الذي يغمره الدجل والخفاء مضطربة الذهن هائمة النفس ، تعتقد في صدق رسالتها الجديدة ، وهي أنها سوف تكون المبشرة بعود السيد المسيح . وكانت مكانتها الاجتماعية ، وصداقاتها الوفيرة ، وفصاحتها المؤثرة ، تخلق حولها جوا من العطف والإعجاب ، وتحدث في جمهور الفلاحين والكافة أعظم الأثر .

ولما شعرت البارونة أن دعوتها أخذت تحدث أثرها ، اعتزمت أن تنشئ للمؤمنين بعودة المسيح مستعمرة خاصة بمعاونة فونتين ، فهرع اليها كثير من

السذج والفلاحين بعد ان باعوا كل ما لديهم ، وأنشأت هذه المستعمرة الغريبة بالفعل فى ١٨٠٩ فى بلدة كاترنن بليزير بمقاطعة ڤرتمبرج ، ولكن الحكومة ما لبثت أن أمرت بإلغائها وتفريقها .

وعندئذ أخذت البارونة تتحول من مكان إلى مكان فى أنحاء بادن تبشر بعود السيد المسيح ، وكانت حماستها فى بث تعاليمها وهباتها وصدقاتها الجمة تجذب إليها الجماهير من كل فج ؛ وكانت كلما حلت بمكان كثرت حولها المزاعم والروايات الخارقة . ثم رحلت إلى جنيف فى سنة ١٨١٣ فاجتمع حولها بعض الهائمين المتحمسين ولا سيما هنرى أمپتاز الذى غدا فيما بعد أعظم أنصارها ومعاونيها . وعادت بعد ذلك إلى شتراسبرج حيث كان لها بعض الصحب والأنصار ، وهناك انضم إليها داعية يدعى فرانز فون بركهايم وهو الذى تزوج فيما بعد من ابنتها جولييت .

٢

فى أواخر سنة ١٨١٤ سافرت البارونة مع ابنتها وأمپتاز معاونها الجديد إلى دن . وشاء القدر أن تكون القيصرة اليزابيث الروسية يومئذ فى كالسروه ؛ وكان القيصر إسكندر يعانى منذ حين بعض الاضطرابات النفسية ، ويحاول أن يجد راحة الذهن والروح فى ظل الإيمان والتعاليم المسيحية . فخطر للقيصرة أن القيصر قد يشفى من نزعاته العصبية ويجد الراحة النفسية المنشودة على يد البارونة فون كريدنر ، خصوصا بعد أن أخفق الراهب شتانج فى القيام بهذه المهمة . والواقع أن البارونة كانت تسعى إلى لقاء القيصر ، وقد كتبت إلى حاشيته غير مرة ترجو هذا اللقاء ولكن دون جدوى . ولم تحقق أمنيتها سوى المصادفة المحضة . ففى ربيع سنة ١٨١٥ كانت البارونة تقيم فى شليخترن على مقربة من بادن تبث دعوتها بين الفلاحين . وفى الرابع من شهر يونيه نزل القيصر إسكندر وحاشيته فى بلدة قريبة تسمى هايلبرون ففى مساء ذلك اليوم التمست البارونة مقابلة القيصر ، وأجيبت فورا إلى طلبها .

وكان منظرا عجيبا : كان القيصر وحيدا يلقى نظراته الشاردة على صفحات التوراة ، فلما دخلت البارونة خيل إليه أن مقدمها كان استجابة لأمنيته . ولبثت

البارونة معه ثلاث ساعات تعظه وتلقنه تعاليمها ورسالتها بأسلوب عذب وفصاحة مؤثرة ، على حين كان القيصر — أعظم ملك فى أوربا — يجلس معتمدا رأسه بين يديه ، وهو يصعد الزفرات كالطفل المحزون ؛ وأخيرا هدأت نفسه وأعلن أنه لقى السلام المنشود .

شعر القيصر إسكندر أن هذه المرأة المؤمنة الهائمة تغزو نفسه المضطربة بقوة عجيبة فقربها ، وأسبغ عليها عطفه وحمايته ، وتبعته البارونة إلى هيدلبرج نزولا على رغبته ، ثم سار إلى باريس والبارونة فى ركبه . وكانت موقعة واترلو قد توجت يومئذ نضال الأمم المتحالفة ضد نابليون وسحق الإمبراطور وسحق جيشه الذى لبث خمسة عشر عاما أداة الطغيان والاعتداء على حريات الأمم الأوربية . واحتل الحلفاء باريس ، ونزل القيصر مع حاشيته فى قصر الإليزيه ونزلت البارونة فى فندق مونشنى المجاور للقصر ، وكان يصل بينهما باب خفى . وكان القيصر يذهب كل مساء ليشهد الصلاة التى تقيمها البارونة ومعاونها أمبتاز .

وكانت نظرية البعث (عود المسيح) قد ذاعت يومئذ وشقت طريقها بعد الكافة إلى قصور أوربا وحكوماتها . واضحت البارونة فون كريدنر زعيمة هذه الدعوة إلى جانب نفوذها الروحى ، قوة سياسية يعتد بها . وكان يهرع إلى اجتماعاتها منذ حلت بباريس صفوة من أكابر المفكرين والسادة مثل شاتوبريان وبنجمان كونستان ومدام ركاميه والدوقة بوربون ومدام دى دوراس وغيرهم ، هذا عدا جمهور من المؤمنين الذين خلبتهم دعوة البارونة ونبوءاتها .

فى هذا المعترك الفياض بالخفاء والهيام الدينى نشأت فكرة « المعاهدة المقدسة » وهى أغرب وثيقة دولية عرفت فى العصر الحديث . ولم تمض أسابيع قلائل حتى نضجت الفكرة ووضعت المعاهدة ، ووقعها القيصر ، وفرانز الأول إمبراطور النمسا ، وفردريك ولهلم ملك پروسيا . وفى يوم ٢٦ سبتمبر سنة ١٨١٥ أعلن القيصر نصوص « المعاهدة المقدسة » فى حفل عسكرى من جنود الحلفاء أقيم بميدان ڤرنى على مقربة من باريس .

وتبدو هذه المعاهدة الغريبة سواء بديباجتها أو نصوصها كأنها وثيقة كنسية محضة لا وثيقة دولية . فقد سميت « بالمعاهدة المقدسة » وقد بدئت بهذه العبارة : « باسم التثليث الرفيع الذى لا ينفصم » واستهلها الموقعون عليها بالإشارة إلى البركات التى شاءت العناية الإلهية أن تغدقها على دولهم وإلى

اقتناعهم « بوجوب تسوية الخطوات التى تتخذها الدول لتنظيم علائقها المتبادلة وفقا للحقائق السامية التى دعا إليها السيد المسيح »، وأنهم يعلنون عزمهم الثابت على إدارة دولهم وتنظيم علائقهم مع الحكومات الأخرى وفقا لتعاليم الدين المقدس ، أعنى مبادئ العدالة والصداقة المسيحية والسلام .

وقد صيغت مواد المعاهدة الثلاث بهذه الصيغة الدينية ، فنصت الأولى على أن يبقى الملوك الثلاثة مرتبطين برباط الأخوة الذى لا ينفصم ، وأن يتبادلوا المساعدة، وأن يعتبروا أنفسهم نحو شعوبهم وجيوشهم كآباء أبرار ويقودونهم بنفس الروح الأخوية لحماية الدين والسلام والعدالة . ونصت الثانية على « أن الملوك الثلاثة يعتبرون أن العناية الإلهية قد بعثتهم ليحكموا ثلاث شعب من أسرة واحدة ، وأن العالم المسيحى الذى يكونون جزءا منه ليس له سيد سوى « الله » وهو وحده القوى القادر ، وفيه تجتمع كنوز المحبة والعلم والحكمة » . وأما الثالثة فقد نصت على دعوة جميع الدول التى تؤمن بهذه المبادئ إلى الانضمام إلى هذه المعاهدة المقدسة .

تلك نصوص المعاهدة الغريبة التى تمخضت عن نزعات القيصر الدينية . وتجمع الروايات على أن البارونة فون كريدنر كانت مصدر الإلهام والوحى فى إعدادها وعقدها . بل تقول لنا البارونة إنها هى صاحبة الفكرة كلها ، وإن القيصر عرض عليها مشروع المعاهدة لإقرار نصوصه ؛ وهذا ما ترجحه كل الدلائل والروايات . وقد استاء القيصر فيما بعد ، حينما استرد رشده وصوابه ، من خفة البارونة وأحاديثها حول المعاهدة ، وأنحى باللائمة عليها ، وأخذ يفطن شيئاً فشيئاً لما يحيط به من ضروب الشعوذة والدجل ، وأخذ نفوذ البارونة يتقلص تباعا ، وأخذ القيصر يتبرم بعلاقتها ، ويشعر بما يحيط بها من سخرية لاذعة . وبالرغم من أنه أذن قبل رحيله من باريس للبارونة بجواز سفر إلى روسيا ، فإنه لم يعجل باستدعائها . وسافرت البارونة إلى سويسرا فى أوائل أكتوبر فى طريقها إلى روسيا ، وبقيت هنالك تنتظر دعوة القيصر ، بيد أنها لم تره مرة أخرى .

وقد كان لإذاعة المعاهدة المقدسة وقع عميق فى أوربا ، وقد وقعها الملوك الثلاثة فى البداية ، وكان القيصر إسكندر تحدوه الحماسة الإنجيلية ، ولكن قيصر النمسا ، وملك بروسيا وافقا عليها دون حماسة ، ووصفها مترنيخ وزير

خارجية النمسا بأنها « شئ طنان لا قيمة له » . ووصفها كاسلريغ وزير خارجيه انجلترا بأنها « قطعة من التصوف السامى والسخف » . ولم توقع انجلترا المعاهدة ولكن وصى المملكة بعث بكتاب أعلن فيه موافقته على المبادئ التى قامت عليها ، ثم وقعتها دول أوربا بعد ذلك تباعا عدا السلطان والبابا . ولبثت الأمم الأوربية مدى حين ترى فى المعاهدة المقدسة بالرغم من صيغتها المسيحية أداة رجعية لقمع الحركات التحريرية ، وتعاون الملوك الثلاثة على تأييد النظم الطاغية .

٤

استقرت البارونة فى سويسرا مدى حين ، وهناك وقعت تحت تأثير مشعوذ جديد يدعى كلنر ، وأخذت تطوف معه من مكان إلى مكان وهو يبشر بدعوتها ويدعو الناس إلى اتباعها . وكان يتبعها أينما سارت رهط من المتشردين والمتسولين تغدق عليهم من الأموال التى تجمعها باسم الدعوة . وكانت السلطات السويسرية تنظر إلى هذا التجوال بعين السخط ، وتخرجها من الولايات تباعا ، حتى اضطرت آخر الأمر أن تغادر سويسرا مع كلنر وبعض المؤمنين إلى موطنها ليفونيا وذلك فى سنة ١٨١٧ .

وفى سنة ١٨٢٠ ذهبت البارونة إلى بطرسبرج . وجاءت الأنباء يومئذ عن قيام حركة الزعيم ايسلانتى فى المجر وزحفه على الولايات التركية الدانوبية ، فعندئذ أعلنت البارونة فى الحال رسالة القيصر الإلهية فى أن يقوم بحماية النصرانية وتأييد زعمائها . ولكن القيصر لم يحفل بهذه الحركة ، ولم يخطر له أن يعلن حربا مقدسة ، وكان قد تحرر نهائيا من نفوذ البارونة ، وأخذ يتأثر بنصائح مترنيخ ، وردّ على البارونة بخطاب يفيض رقة وأدبا ، ولكن يطلب اليها فيه أن تغادر بطرسبرج فورا .

وكانت هذه الضربة مؤلمة للبارونة ، وكانت عندئذ تدنو من عامها الستين وتذبل صحتها تباعا من جراء التجوال المستمر ، والاضطرابات النفسية العنيفة ، وكان القيصر قد سمح لدعاة البعث بانشاء مستعمرة لهم فى إحدى بلاد القرم ، فقصدت البارونة إلى القرم بالرغم من اعتلال صحتها لتزور صحبها المؤمنين ، وهناك وافاها القدر المحتوم فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٢٥ .

وهكذا اختتمت البارونة فون كريدنر حياتها الحافلة بصنوف المغامرات والشعوذة الدينية العجيبة بعد أن وصلت بحماستها وقوة تأثيرها الروحى إلى السيطرة على ذهن أعظم ملوك العصر ، واستطاعت أن تؤثر فى سير السياسة الدولية من وراء ستار . بيد أن البارونة شهدت فى أواخر حياتها أحلامها ودعواتها تنهار تباعا ، وأخذت الغشاوة التى طمست على عقلها ونفسها تنقشع ببطء ، وأصبحت ترى أن ما كانت تعتقده من صوت الله لم يكن سوى الخيال المغرق والكبرياء المضللة العقيم .

وقد كانت حياة البارونة فون كريدنر مستقى خصبا لأقلام كثيرة ، فصدرت عنها كتب وتراجم عديدة بالألمانية والفرنسية والانجليزية . هذا عدا ما دونته كتب التاريخ بصفة عامة عن صلتها الوثيقة بعقد « المعاهدة المقدسة » وهى ألمع نقطة فى سيرتها العجيبة .

محمد عبد الله عنان